حجرة الدراسة:
قراءة في الدلالات الرمزية

عبدالجليل لعميري

مقدمة

يعتبر الفضاء الذي يعيش فيه الإنسان مكونا أساسيا في حياته الاجتماعية وتكوينه النفسي. خاصة إذا كان هذا الإنسان هو: الطفل، اليافع، المراهق أو الشاب...وإذا كان هذا الإنسان بتجلياته المذكورة تلميذا أو متعلما فان للمكان في حياته موقعا حساسا(أماكن الطفولة كما حللها باشلار (Bachelard. G) في كتابه «شعرية الفضاء»)،وله تأثير بالغ على نفسيته وبناء شخصيته.

ومن الأماكن التي يعيش داخلها التلميذ(ة) نجد الحجرة الدراسية أو حجرة الدرس.

فما هي دلالاتها وأثرها النفسي على التلميذ(ة) ؟ وما تحمل من رمزية في حياته؟

في المفهوم :

في البحث التربوي يتحدث الباحثون كثيرا عن جماعة القسم، وعن العلاقات التربوية داخل الفصل الدراسي(1) ...ولا احد تحدث عن المكان/الفضاء في حد ذاته ...فبالرغم من الحديث عن العلاقات داخله (التلميذ(ة) والأستاذ(ة)/الإنسان)فالمكان في حد ذاته يظل مهملا إلى حد كبير. وحتى المصطلحات المستعملة في هذا المجال يطغى عليها الطابع التربوي، فهذا المكان يسمى: الفصل الدراسي، أو الصف الدراسي أو القسم الدراسي...وبحثنا يسعى إلى التركيز على الفضاء المحدد المسمى «بالحجرة الدراسية أو حجرة الدراسة» في بعديها الهندسي والرمزي... فما المقصود بها ؟

حجرة الدرس :

هي وحدة هندسية أو بناء هندسي تنتمي إلى فضاء هندسي أوسع منها هو: المدرسة أو المؤسسة التعليمية التربوية، التي يصطلح عليها في الأدبيات التربوية ب:

ـ المدرسة الابتدائية.

ـ الإعدادية الثانوية.

ـ الثانوية التأهيلية.

وقد يضاف إليها مدرسة الروض أو المسيد والجامع أو المسجد باعتباره يلعب هذا الدور التربوي التعليمي أيضا.

وبهذا نلاحظ أن المؤسسة التربوية في بعدها المادي الهندسي هي فضاء مقسم إلى عدة فضاءات صغرى ، أهمها وأكثرها حضورا وتجسيدا هي :

الحجرات الدراسية، وثانيها: الإدارة التربوية (المكاتب)، وثالثها: المرافق الصحية. و رابعها: السكنيات (الوظيفية..).

البعد الهندسي لحجرة الدراسة :

في أغلب الحالات تكون حجرة الدرس عبارة عن شكل مستطيل، مقسم إلى منطقتين متمايزتين:

أ/منطقة الأستاذ ، حيث نجد المكتب والسبورة. وتكون هذه المنطقة مرتفعة نسبيا بالمقارنة مع مستوى باقي قاعة الدرس.

ب/ منطقة التلاميذ ، حيث نجد الطاولات في شكل صفوف مرتبة ومنظمة من الأمام نحو الخلف (بداية من منطقة الأستاذ(ة) في الاتجاه المعاكس). وتكون بين الصفوف فراغات تسمح بحركة التلاميذ والأستاذ(ة).شكل قاعة الدرس هذا يتشابه في معظم المدارس المغربية ، وغير المغربية(مع استثناء خاص بقاعات العلوم والتي لا تخرج في شكلها العام عن الهندسة التي أشرنا إليها..مع وجود طاولات وكراسي بلا ظهور أو ذراعين (الطابوريت)).

قراءة في شكل غرفة الدرس :

رغم وجود نوافذ في اغلب الأحيان – لضرورة صحية مثل التهوية والإنارة- فان للحجرة باب أو عتبة يفصلها عن الخارج (باقي المؤسسة) مما يجعل منها مكانا مغلقا ، تنظمه قوانين الضبط والانضباط والقيام بواجبات وأعمال لها علاقة بالتعلم...

وهنا يعيش التلميذ (ة) حالتين مختلفتين:

أ. الإحساس بالحميمة والأمان والاطمئنان والراحة، إذا كانت العلاقة بالمدرس ايجابية ، وإذا كان التلميذ (ة) قادرا على مسايرة الدرس أو المادة المدروسة..

ب. الإحساس بالعدوانية والضيق والخوف والتقيد، إذا كانت العلاقة بالمدرس سلبية والعلاقة بالمادة يشوبها الضعف..

والحالتان ليستا مستقرتين دائما، بل هما متعاقبتان ومتناوبتان، فنفس التلميذ (ة) قد يعيش الإحساس الأول في مادة ما مع أستاذ معين، ثم يعيش الإحساس الثاني في مادة ثانية ومع أستاذ أخر... مما يظهر أن العلاقة مع المكان متحولة لا ثابتة، وهو أمر مرتبط بتحولات الحياة النفسية للإنسان...وبحسب يوري لوتمان(2) فان حجرة الدرس تقابل عنده البيت أحيانا، عندما تتوفر فيها عناصر الحميمة : الأمن والراحة والاستقرار ...وقد تقابل الغابة، حين تتوفر فيها عناصر العدوانية: الخوف والضيق والخطر... وتضافر هذين الاحساسين عند التلميذ ينعكس إيجابا أو سلبا على مردوديته ونفسيته، خاصة انه ينتمي إلى مرحلة عمرية حساسة (الطفولة/ المراهقة)...

- فما الذي يجعل هذين الاحساسين قائمين في فضاء حجرة الدرس؟

أ. حجرة الدرس أو البيت الايجابي :

هناك عوامل بشرية ومادية تساهم في تحويل حجرة الدرس إلى بيت حميم، أولها شخصية الأستاذ(ة)، فكل ما كان ديمقراطيا، وعادلا ومتفهما لتلاميذه، وقادرا على توظيف خبراته الميدانية والمعرفية في المجالين النفسي والاجتماعي، كانت علاقته بتلاميذه مريحة ومساهمة في تعايشهم مع المكان. يضاف إلى هذا نجاحه معرفيا وديداكتيكيا في تبليغ المادة المدروسة.

وثانيهما المادة المدروسة، سواء من حيث مضامينها أو كمها ونوعها (خصوصا المقررات والقيم والمناهج..). فالاختيار العلمي لمضامين المادة ، ومراعاة روح العصر وتطوره، وتفادي

الجمود والضعف والأخطاء يساعد على حب المادة ويدعم الدور الايجابي للأستاذ(ة) الديمقراطي ويحول المكان إلى بيت مريح بعيدا عن الإحساس بالنفور..

وثالث الأسباب جودة الإمكانيات المتوفرة في المكان، فالحجرة تكون مريحة بنظافتها وبمقاعدها المناسبة وبسبورتها المناسبة للعمل وتوفر الكهرباء لتمكين الأستاذ(ة)من استعمال وسائط عصرية جديدة لتجديد تلقي الدرس وإخراجه من حالته التقليدية المزمنة...

هذا المكان الذي يشترط أن تتوفر فيه العوامل الثلاثة المشار إليها يقضي فيه التلميذ(ة) ست ساعات يوميا تقريبا(مدة تتفاوت بين الأسلاك)، أي ما يعادل ربع يومه، وداخله تحدث تحولات عميقة في حياة وشخصية التلميذ(ة)...وهنا تكمن الخطورة ...فان لم تتحقق هذه العوامل فماذا سيحدث؟

ب/ حجرة الدرس آو الغابة:

إذا كان المدرس (ة) ديكتاتورا، أو سلبيا متقاعسا ، فان حجرة الدرس تتحول إلى غابة (حسب لوتمان)تعمها الفوضى التي قد يمارسها بعض التلاميذ على غيرهم وعلى الممتلكات والأستاذ(ة) نفسه ...وتضيع مضامين المادة الدراسية وتعلماتها وتتعرض الممتلكات للتخريب ...فيكره جزء من التلاميذ المكان بفعل ذلك وعبره يكرهون المادة والأستاذ(ة) أيضا...وان كان بعضهم يسعد – واهما – بالفوضى التي يساهم فيها لإبراز زعامات وبطولات لأقرانه...ليكتشف متأخرا ضياع الهدف الأساس: التعلم والنجاح في امتلاك معارف جديدة تساهم في بناء شخصيته بشكل جيد وفعال... إن حجرة الدرس في معظم المدارس المغربية تفتقر للنظافة والإنارة الوظيفية ... وتكون معظم الطاولات مكسرة (وشكلها بمقعدين مزدوجين لم يعد مسايرا للعصر..فهو يعود إلى خمسينيات القرن الماضي على الأقل بالمغرب)ومتسخة وتكون النوافذ في حالة مزرية وكذلك السبورات ومكاتب المدرسين...مكان يصادر شهية العمل عند التلميذ(ة) والمدرس(ة) معا... وهي حقيقة مرة مع الأسف...وماذا لو كانت هذه الحجرة مطلة على مقبرة ومزبلة مجاورتين للمؤسسة؟

في نقد الشكل الهندسي لحجرة الدرس :

تتخذ الحجرة شكلا مستطيلا مقسما إلى حيزين كما اشرنا سالفا، ولهذا التقسيم دلالات رمزية منها :

ـ المكان المرتفع، قرب السبورة، حيث مكتب المدرس(ة)، هو مكان المعرفة والسلطة (الأعلى).

ـ المكان المنخفض، حيث طاولات التلاميذ، هو مكان الجهل والتبعية والدونية (الأسفل).

والعلاقة بين المكانيين عمودية، يجسدها الأستاذ (ة) العارف العالم، والتلميذ (ة) الجاهل التابع...

هذه العلاقة المكانية التي تفرضها هندسة حجرة الدرس لا يمكن خرقها إلا عبر خرق الأستاذ(ة) للحد الفاصل بين الحيزين المذكورين ،اي نزوله (من أعلى إلى أسفل)عند التلاميذ (ما يشبه تحطيم الجدار الرابع في المسرح الملحمي)لبناء علاقة جديدة: علاقة أفقية ،إذ يصبح المدرس في نفس مستوى التلاميذ (وكأنه واحد منهم)مما يساهم في تغيير أو تلطيف علاقة التوتر الرمزية – العنف الرمزي للمكان- القائمة في نسق العمودية السابق ، ويظهر الأستاذ(ة) هنا وكأنه تنازل عن مكانه/سلطته/برجه لينضم إلى التلاميذ ، وهذا ما يسمى «بالتواصل بدون كلمات أو التواصل الصامت»، وكلما كان الأستاذ(ة) واعيا برسائله الصامتة إلى التلاميذ فانه يستطيع تحقيق نتائج ايجابية في التواصل الصفي البيداغوجي.

وافترضوا معي أن طاولاتنا من النوع الفردي المستقل (لا يلتصق بها المقعد)، وان لكل تلميذ(ة) مقعده المنفرد الخاص به...وان الدرس يتم في شكل دائري أو في شكل مائدة مستديرة...وان السبورات موجودة في أكثر من موقع داخل حجرة الدرس...وان تكون من نوع السبورات الجديدة (الكتابة بالأقلام اللبدية بدل الطباشير أو تكون تفاعلية) وان يكون عدد التلاميذ في حدود المعدل الدولي (حوالي 25)...تصوروا معي أن يكون بلاط الأرضية لامعا ونظيفا...والإنارة متوفرة ...والمسلاط متوفر...تصوروا معي كيف سيكون انعكاس ذلك على نفسية الجميع ومردوديته....انه مجرد تصور أو حلم غير مغربي....مع الأسف...

حجرة الدرس وأماكن العبادة : دلالة التشابه:

هذه العلاقة الهندسية العمودية التي تكرس مركزية المدرس(ة) داخل حجرة الدرس، تشبه إلى حد بعيد العلاقة الهندسية العمودية في أماكن العبادة:

1/المسجد :

مكان للعبادة عند المسلمين له رمزية عظيمة (يقال له بيت الله)، وقد يكون مكانا للتعليم والتربية(المسيد/الجامع) ،ورغم تعدد الفضاءات داخله ، فإننا سنركز على مكانين متكاملين : مكان الصلاة ومكان التعليم (قد يكونا متمايزين أو متطابقين) :

أ/مكان الفقيه(سواء كان إماما أو مدرسا)، ويكون في الأمام(القيادة) ، مرتبط بالمنبر(الأعلى)، أو «الدكة / الدكانة» حيث يجلس الفقيه المدرس (برجه). ويكون الفقيه عالما وله سلطة دينية (الخطبة / الإفتاء/التفقه في الدين..) .

ب/ مكان الناس المريدين(وضمنهم تلاميذ الكتاب)يكونون فيه تابعين وخاضعين لسلطة الشيخ(ممنوع اللغو/تنفيذ الأوامر/الخضوع..). فالفقيه الشيخ له سلطة علوية يستمدها من الله، والآخرون خاضعون لهذه السلطة (ضرورة التسليم بها وعدم الخروج عنها).

2/الكنيسة :

وهي بيت عبادة المسيحيين ، وتنقسم بدورها إلى حيزين :

أ/مكان رجل الدين (القس...) الذي يكون في مكان أعلى (المنبر/المنصة) ، ويستمد سلطته العلوية من الله والنصوص المقدسة، ولديه سلطة المعرفة والمكانة أو الدرجة الدينية (رجال الدين عند المسيحيين درجات).

ب/ مكان الناس المؤمنين الذين يحضرون القداس، حيث يكونون تابعين (الجلوس في مقاعد منخفضة عن مستوى المنبر) وخاضعين لسلطة القس (التعميد/الصلاة تحت وصايته/ الاعتراف..).

3/الكنيس :

بيت كنيست بالعبرية،أي بيت الاجتماع جمعه «كُنس» هو معبد أتباع الديانة اليهودية نظير للمسجد لدى المسلمين والكنيسة لدى المسيحيين.

شكل المعبد في الغالب مستطيل. ... وقد كان قارئ التوراة يقف في مكان أكثر انخفاضاً (نسبياً) من أرض المعبد. وفي الوقت الحاضر، انعكس الوضع فصار القارئ يجلس على منصة عالية نسبياً تُسمَّى «بيماه» (أو «الميمار»). وتُقام في المعبد الصلوات اليومية،وينقسم بدوره إلى حيزين متمايزين، يحتل احدهما(الأمام/الأعلى) الحبر أو من ينوب عنه ،ويحتل الثاني جماعة المتعبدين (الأسفل/باقي المكان).

إذا فحجرة الدرس تشبه المكان الديني من حيث شكله الهندسي وحرمته وقدسيته التي يجب على الجميع احترامها والتقيد بها لضمان نجاح العملية التعليمية التعلمية...ومن هنا

تدخل القيم الدينية في فضاء المدرسة للحد من فوضى الأفعال غير الخاضعة للنظام العام...لعل للأمر ايجابياته،فالصورة العامة للمكان الديني تدل على انه مكان امن (الإيمان توازن في الحياة)، وكذلك تكون حجرة الدرس مكانا أمنا من اجل المعرفة وبناء شخصية التلميذ/المؤمن...وقد تكون له سلبيات، فالمؤسسة الدينية الصارمة في مبادئها قد لا تكون شبيهة بالمؤسسة التربوية العصرية التي لا تدعو إلى اليقينيات بقدر ما تبحث عن الإبداع وروح النقد والاجتهاد... في إطار فلسفة الشك البناء...وإذا كان رجل الدين يسعى إلى تثبيت سلطته الرمزية القوية، فان المدرس(ة) لا يسعى إلى امتلاك سلطة أو تأبيدها بقدر ما يسعى إلى أن يكون عنصرا فاعلا في شبكة من العلاقات المركبة..عنصر حوار وانفتاح أكثر منه سلطة قوية...انه قوة ناعمة تحضر بقوة لكنها تحاول تلطيف «العنف الرمزي» الذي تمارسه المنظومة التعليمية على التلميذ(ة).

خاتمة

إن حجرة الدرس فضاء مركب وغير محايد، تحدث داخله أفعال وأحداث كثيرة...بعضها صريح وبعضها خفي واشاري وصامت...ولكنها تبني علاقات معقدة تجسد الأبعاد المتنوعة للفضاء في حياة الانسان.... إن العناية الجدية بها مدخل من مداخل إصلاح التعليم المغربي والرفع من مردودية المنظومة التربوية بالمغرب....

مراجع:

حمد الله أجبارة، 2009، التواصل البيداغوجي الصفي (ديناميته، أسسه ومعوقاته)، البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات مجلة علوم التربية العدد 18. ص: 160.

يوري لوتمان، 1988، بنية النص الفني (مشكلة المكان)، ترجمة سيزا قاسم، عيون المقالات، دار قرطبة ، ط2.

نشر هذا العدد بدعم من
وزارة الثقـــافة